# علاقة البلاغة بالدلالة الفنية

## في الآيات النورانية.

عبد المالك قـــرل - تلمسان

إنّ الحديث عن الدراسات البلاغية المتعلقة بالقرآن الكريم قد انطلقت من فكرة إعجاز القرآن . فقد نزل وفي العرب أفصح الفصحاء وأبلغ الخطباء وتحدّاهم على أن يأتوا بمثله فلم يقدروا ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ الطور -34-

وحينما استقرّ أمر المسلمين انبرى مجموعة من العلماء يشرحونه ويفسّرونه لم تكن جهودهم لتشكل نظرية أو علما بذاته ، كما عرف فيما بعد باسم "إعجاز القرآن" ، وأنّ معرفة إعجازه تقتضي دراسة جميع وجوه المعاني والبيان وأسلوب الفصاحة والبلاغة.

وهكذا لم تستقر هذه الجهود إلاّ بالزيادة والإبداع في وجوه عديدة من البلاغة ، والقرآن الكريم مادته الدسمة فتطور هذا المصطلح وأصبح ينظر إليه من جانب الخيال الذي يؤدي إلى الذوق الفني من خلال تصويره لدقائق المعاني ولطائف الأخيلة ، ولا يعجزه إطلاقا أن يوظف الكلمة في مستوى المعنى على أدقّ وجه وأكمل صورة.

فالصورة لا تنحصر في التشابه والاستعارات وسواها من ضروب المجاز ، ولكنّها كل صورة توحي بأكثر من معناها الظاهر ولو جاءت منقولة من الواقع[1]. ويرى أحد النقاد الغربيين الذي استغنى في أحايين كثيرة عن مصطلح "Image" لصالح مصطلح آخر هو "Figure" "محسن" الذي يدلّ على كلّ المحسنات البلاغية وهنا تصبح الاستعارة والتشبيه مجرّد محسنين[2].

إذن فالصورة هي بنية لغوية تتخذ فيها الكلمات نسقا معينا من العلاقات المتميزة وفقا لما تقتضيه الرسالة الإلهية فخرجت في شكل يتجاوز المألوف ويغالب الدلالة الحرفية... كما هي تشكيل متكامل مكثّف ناتج من اتحاد جميع الأطراف اتحادا إبداعيا....[3].

وعلى هذا الأساس يرى الدكتور عبد المالك مرتاض أنّ الصورة لا تنحصر في الألوان البلاغية بل يمنحها فسحة التوسع والتحرك والتمدّد فيقول : « فالتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية محدودة التصور ، قاصرة التمثيل... إنّما كأنّها امتداد لقواعد النحو»[4]. ويقول في موضع آخر : « الصورة ليست تشبيها وما ينبغي لها ، وإنّما هي شيء يجنح نحو تقريب حقيقتين متباينتين »[5]. ومن خلال هذا كلّه فإذا كانت الجهة المعجزة في القرآن تُعرف بالتفكير في الوجوه البلاغية، فلابدّ من الوقوف عند الصورة العظيمة الّتي ترسم بكلمات الذكر الحكيم مشاهد حيّة وحركية ترى وتشاهد، تجد المتلقي فيها منبهرا بين فصاحة الأسلوب وجمالية المعنى نستشفها كمثال في الآيات النورانية.

مثال قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ النور – الآية 35.

يتبين لنا في هذا النص مجموعة من الدلالات المعجمية و التي يجب الوقوف عليها في لسان العرب لابن منضور فيقول:نور : في أسماء الله: النور:قال ابن الأثير: هو الذي يبصر بنوره ذو العماية و يرشد بهداه ذو الغواية. و قيل هو الظاهر الذي به كل ظهور، و الظاهر في نفسه المظهر لغيره، و يسمى نورا،قال أبو منصور: و النور: من صفات الله عز و جل. قال الله عز وجل الله نور السموات و الأرض. قيل في تفسيره هادي السموات و الأرض و قيل: مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، و النور : الضوء أيا كان، و قيل هو شعاعه و سطوعه، و الجمع أنوار و نيران عن ثعلب، وقد نار نورا و أنار و استنار.... بمعنى واحد أي أضاء.

و النور: هو الذي يبين الأشياءو يرى الأبصار حقيقتها قال: فمثل ما أتى به النبي (ص) في القلوب في بيانه وكشفه الظلمات كمثل النور ثم قال: يهدي الله لنوره من يشاء[6]

و يرى البقاعي في كتابه نظم الدرر أن الله سبحانه و تعالى في هذه بين وجه خفائه مع ظهور ضيائه و اتساعه و قوة شعاعه حتى ظل عنه أكثر الناس. فقال مبينا بإضافة النور الى ضميره أن الإخبار عنه بالنور مجاز لا حقيقة[7].

و نلاحظ أن البقاعي قد ركز في تفسيره على كل لفظة لها دلالة نورانية فيقول (كمشكواة) أي مثل كوة أي خرق لكن غير نافذ في جدار. و لما دخل المشكاة في هذا المثل خفيا فقدمها تشويقا لشرحه، أتبعه قوله( فيها مصباح) أي سراج ضخم ثاقب و هو الذبالة- الفتيلة- فاذا كان في المشكاة اجتمعت أشعته، ولو كان في فضاء لافترقت أشعته[8].

و في موضع آخر يقول (الزجاجة كأنها كوكب ذري) أي متلألئ بالأنوار فانه إذا كان في زجاجة صافية، انعكست الأشعة المنفصلة عنه من بعض جوانب الزجاجة إلى بعض لما فيها من الصفاء فيزداد النور كما أن شعاع الشمس إذا وقع على ماء أو زجاجة صافية تضاعف النور، حتى أنه يظهر فيما يقابله مثل ذلك النور[9].

و في موضع أخير يقول : و لما علم من أن هذا لمثل به أنوارا متظاهرة بمعاونة المشكاة و الزجاجة و المصباح و الزيت فلم يبق ما يقوي به نوره و يزيده إشراقا، ويمده بإضاءة نقية... ولما كان الإخبار عن مضاعفة هذا النور موجبا لاعتقاد أنه لا يخفى على أحد أشار إلا أنه بشمول[10] علمه و تمام قدرته يعمى عنه من يريد مع شدة ضيائه.

و مما سبق يتضح أن الآيات تحمل خصوصية البلاغة من تشبيه و استعارة و غيرها، لا تكاد تخرج في مضمونها عن الصورة التي تكونها دلالة الألفاظ المستخرجة من مصدر واحد و هو النور إذ أن هناك علاقة بين التصوير و البيان نوضحه في الشكل الآتي:

| الجوانب الفنية (الصورة) | الوجوه البلاغية |
| --- | --- |
| إنّ الصورة يغمرها النور من كل جانب ، حيث تناصرت فيها المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت على الإضاءة والتنوير، كما أنّ المعجم الفني للصورة طغت عليه مفردات النور مثل : الله نور... نوره، مشكاة، المصباح، زجاجة، كوكب دري، يوقد، زيتها يضيء، نار، نور، وكلّها مواد يدركها الإنسان ببصره ويتعامل معها بحواسه... أي أنّ هذه الأنوار مصدرها نور واحد هو الله وأنّها كلّها منه، بها ينير العقول والنفوس، وبها يهدي إلى الإيمان، ويكشف الحواجز عن الكون<br>إنّ المتأمل في هذه الصورة يجد متعة روحية وموضوعية مجرّدة عن إثارة غرائز الإنسان وميولاته الدنيوية، كما يفعل المبدعون الذين يستخدمون الشمس والقمر والليل والنهار رموزا وتعابير عن الجمال الجسدي للمحبوب وأحيازا وفضاءات للعشق والحبّ، وما احتفظت هذه الصور القرآنية من كل ذلك إلاّ بمضمون واحد مشترك هو العبادة والتأمل والاتصال بالكمال الإلهي[13]. | إطلاق المصدر على اسم الفاعل للمبالغة ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بمعنى منور لكلّ شيء بحيث كأنّه عين نوره. قال الشريف الرضي : وفي آية استعارة على تفسير بعض العلماء – والمراد عندهم أنّه هادي أهل السماوات والأرض بصوادع برهانه وتواصع بيانه. كما يهتدي بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة.<br>التشبيه التمثيلي ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ شبّه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهّاج في كوّة داخل زجاجة تشبه الكوكب وسمّي تمثيليا لأنّ وجه الشبه منتزع من متعدّد. وهو من روائع التشبيه[11].<br>خمس تخصيص، وفيها خمس تخصيصات، وذلك أن جاء بصفة النور ومثّله، ثمّ خصّص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها ثمّ رجع إلى ذكر النور والزيت [يستمد منه، ثمّ خصّص منه إلى ذكر الشجرة ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت ثمّ خصّص من صفة الزيت إلى صفة النور ونعته ثمّ خلص منه إلى نعت الله بالهدى على من يشاء[12]. |

وعلى هذا الأساس يتبيّن من خلال هذه المقارنة بأنّ الصورة لا تنحصر في الألوان البلاغية، بل تنشأ عن الإحساس عبر صور لها دلالة فنية منقولة للحواس تعمل بشكل ترابطي تعاوني في إدراك وتذوق جماليات النصّ القرآني.

## المصادر والمراجع :


(1) – روز غريب – تمهيد في النقد الحديث – بيروت – دار المكشوف – 1991 – ص 191.

(2) – د. محمد الولي : الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي – بيروت – المركز الثقافي العربي – ط1 – 1990 – ص 10.

(3) – أ.د. محمد طول – الصورة الفنية في القرآن الكريم –دكتوراه – 1996 – ص 19.

(4) – د. عبد المالك مرتاض – بنية الخطاب الشعري – بيروت – دار الحداثة – ط1 – 1986 – ص 70.

(5) – المرجع نفسه.

(6) ابن منظور–لسان العرب–دار و مكتبة الهلال–بيروت–ط1– ص379 ..380

(7)برهان الدين عمر البقاعي –نظم الدرر في تناسب الآيات و السور– المنشورات الشرقية

– ط1– 1978 ج13 ص (271-276) بتصرف.

(8)المصدر نفسه

(9) المصدر نفسه

(10) المصدر نفسه

(11) – محمد علي الصابوني – صفوة التفاسير – دار الفنيان – قسنطينة – م2. ط1 – 1990 – ص 302.

(12) – الزركشي – البرهان في علوم القرآن – دار المعرفة – بيروت – م1 – ط2 – 1994 – ص 139.

(13) – أ.د. محمد طول – الصورة الفنية في القرآن الكريم – ص